محاضرة دولة الموحدين

الأهداف

- تحديد الامتداد الجغرافي والزمني للدولة الموحدية.

-تحليل دور مهدي بن تومرت ودعوته في تأسيس الدولة

-تحليل عوامل السقوط

المقدمة:

استطاع ابن خلدون أن يطور مفهوم "الدولة" انطلاقا من مقاربات متعددة أهمها العصبية و"الدعوة الدينية". وقد رأينا في محاضرات سابقة الدور الذي لعبته الدعوة في استقطاب القبائل وتحفيزهم على التغيير، سواء كانت هذه الدعوة نبوة أو رسالة أو دعوة إصلاحية. ولعل الحركة الموحدية بقيادة المهدي بن تومرت هي أحد أهم هذه التجارب التي قامت بالمغرب خلال القرن السادس الهجري بما حملته من تحولات ومستجدات في المجالين السياسي والجغرافي. في هذه المحاضرة سنتعرف كيف تمكنت هذه الدعوة من ضم القبائل والقضاء على الدولة المرابطية، وبناء دولة عظيمة وحدت المغرب والأندلس.

1-الدولَة الموحدية

هي دولة إسلامية أسسها الموحدون وهم من قبيلة **مصمودة** المغربية وذلك خلال القرن الثاني عشر. حكمت بلاد المغرب والأندلس بين سنتي 1121م و1269م، وقد أسسها **محمد بن تومرت المصمودي** على شكل حركة دينية قبل أن يتمكن تلميذه **عبد المؤمن بن علي الكومي** (1130م/1133م -1163م) من استكمال مشواره من خلال توحيده لكامل شمال أفريقيا والأندلس تحت حكم دولة وعقيدة وحكومة واحدة.

2-شخصية المهدي بن تومرت

هو **محمد بن عبد الله بن وجليد بن يامصال** المشهور **بالمهدي بن تومرت** (1080م-1130م)، من **هرغة** إحدى قبائل **المصامدة** البربرية في السوس الأقصى تعلم وحفظ القرآن في سن مبكرة، وتمكن من تحصيل قدر كبير من العلوم والمعارف. بدأ رحلته العلمية من الأندلس، حيث تتلمذ على يد العديد من علماء زمانه في قرطبة مثل القاضي ابن حمدين الذي كان من أكبر علماء الاندلس في ذلك الوقت. ثم توجه إلى المشكل لاستكمال رحلته، فسافر إلى مصر، واستقر بالإسكندرية، كان من

المواظبين على حضور محاضرات الإمام أبي بكر الطرطوشي. ثم توجه بعد ذلك إلى الحجاز وبلاد الشام متخذا منها طريقا نحو العراق، حيث تلقى العلم هناك على يد الكثير من العلماء الكبار من أبرزهم أبو حامد الغزالي كما يزعم. وأثناء رحلته هذه لاحظ بن تومرت حالة الضعف التي أصابت المسلمين، سواء في أراضي الخلافة العباسية أو الأراضي التي كانت تابعة للدولة الفاطمية. ما جعله يتبنى منهجا اصلاحيا خاصا ويفكر في إقامة دولة إسلامية تضم أقاليم العالم الإسلامي.

3-الدعوة الموحدية دينيا وسياسيا:

أثناء عودة بن تومرت إلى السوس الأقصى بالمغرب، بدأ في دعوته (الإصلاحية) في كل المدن والقرى التي كان يمر منها، وكان أساسها التوحيد و"الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" حيث أنظم إليه العديد من التلاميذ والتابعين، وأسس عقيدة اسماها **المرشدة** لكون أتباع هذه المدرسة كانوا يدعون إلى توحيد الله توحيدًا قاطعًا مما جعلهم ينكرون أسماء الله الحسنى باعتبارها أسماء لصفات مادية، فكانوا يذكرون الله باسمه المفرد الله. فحمل على هذه الدعوة اتباعه وسماهم **الموحدين**، ونبز من خالف هذه العقيدة بالتجسيم واباح دمه. وكان يدعوا إلى تنقية العقيدة من الشوائب. وبدأ بالتمهيد لنشر فكرة أنه هو "المهدي المنتظر" عبر نشر العديد من الأخبار والأحاديث عن المهدي وأوصافه، الشيء الذي سيقوم به بعد تأكده من تقبل اتباعه للفكرة. واعتبر نفسها معصوم من الخطأ. كما ادعى أنه من نسب شريف يعود إلى الحسين ابن علي حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبالتالي فإنه على الجميع الاقتداء به في جميع أفعاله وقبول أحكامه الدينية والدنيوية، وتفويض الأمر إليه في كل شيء.

كان بن تومرت يتميز بذكاء حاذ فقد ضم إليه العديد من القبائل وعمل على استخدام العديد من الجواسيس ممن كانوا يدعون معه، ليكونوا عيونا له وقام كذلك بقتال القبائل التي كانت تخالف دعوته. حتى أنه قام بأكبر حركة تطهيرية لدعوته وهي الحركة التي عرفت بـ "التمييز" حيث قتل الآلاف من أنصاره الذين كان يشك في ولائهم المطلق له. ليدخل بعد ذلك في العديد من الصراعات والاصطدامات مع الدولة المرابطية. التي سيتمكن من الانتصار عليها بعد العديد من المعارك أمام أسوار مراكش الدولة العاصمة المرابطية آنذاك في عام 524هـ، في معركة "البحيرة الساحقة".

4-مميزات الدعوة الموحدية:

للحركة أو الدعوة الموحدية سواء من الناحية الدينية السياسية مجموعة من الخصوصيات:

-فحركة بن تومرت لم تكن مستندة على أي مذهب موجود قبلها، فقد قام بن تومرت بابتكار مذهب سياسي-ديني لم يكن قائما آنذاك، وهو مذهب يرتكز على مجموعة من الأسس والقيم

والاختيارات التي انتقاها من مجموعة من المذاهب والتيارات الفكرية الإسلامية المشهورة ليعطينا مذهبا خاصا وهو مذهب الموحدين فقد أخذ من الشيعة فكرة العصمة المطلقة للأمام، واقتبس من الخوارج الاعتقاد القائل بحتمية المخالف وضرورة الثورة على الحاكم الجائر.

-من أجل تحقيقه طموحه الديني-السياسي ادعى بن تومرت أنه من نسب شريف، الشيء الذي لم يثبت تاريخيا بحسب العديد من الباحثين. كما ادعى أيضا أنه المهدي المنتظر المعصوم من الخطأ بناء على انتسابه لأهل البيت، وهي دعوى باطلة عقلا ونقلا.

-اعتماده على فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أجل تحقيق مشروعه السياسي.

يمكن القول إن الحركة الموحدية مع المهدي بن تومرت من أهم الحركات السياسية التي كانت لها مرتكزات دينية على مر التاريخ، وهي في حد ذاتها تجربة لها خصوصياتها. تجربة دينية-سياسية إصلاحية، ونموذج مهم للحركات الدينية التي نجحت في بناء دولة سياسية، تعتبر أقوى الدول في تاريخ المغرب، دولة قوية حكمت كل أراضي المغرب وامتدت حتى الأندلس.

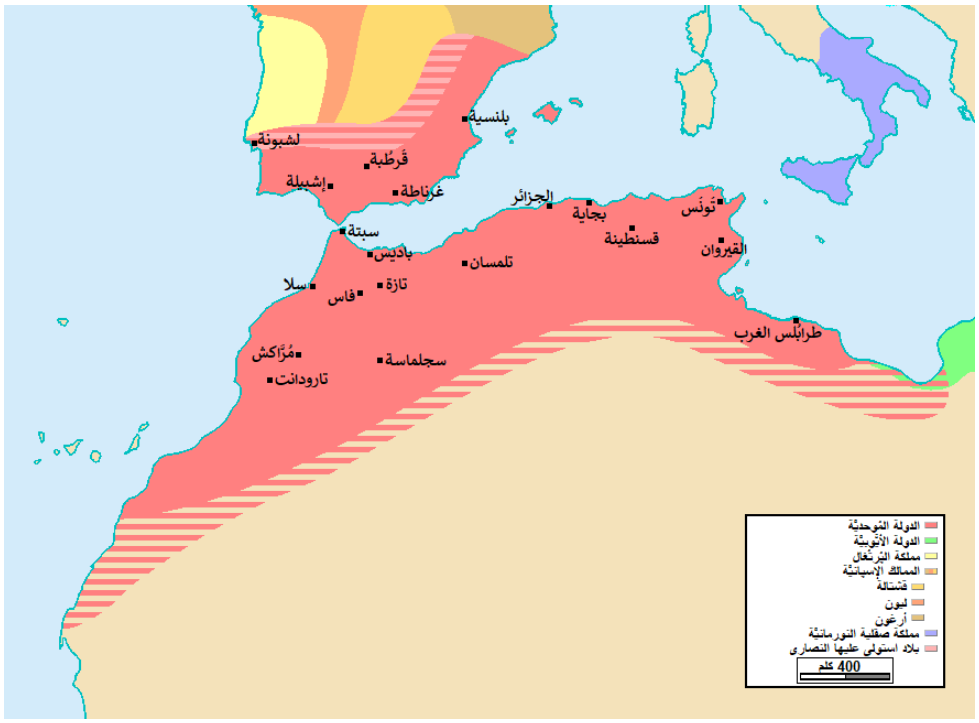

5-التوسع وتأسيس الدولة:

-أطلق ابن تومرت عام 1118م الدعوة لمحاربة المرابطين واتخذ من قلعة تنمل على جبال الأطلس الكبير مقرا للدعوة ومركزا للعمليات العسكرية. وقد مر في توسعه العسكري بمحطات هامة:

-ضم تلمسان ووهران بالمغرب الأوسط للدولة الموحدية، وقد تمت هذه المرحلة سنة 539هـ/1144م. حيث تولى **عبد المؤمن بن علي الكومي** أمور الدعوة عقب وفاة المهدي بن تومرت 524هـ /1130م، ورغم الهزيمة التي لحقت بالموحدين في **معركة البحيرة**، استطاع أن يجند أنصارا جددا، وظل يناوش المرابطين حتى سنة 534هـ /1140م، حين جهز جيشًا عظيمًا، وخرج به من قاعدته **تينمل**، متجها صوب شرق المغرب وجنوبه الشرقي؛ لإخضاع القبائل لدعوته، حتى تمكن من دخول **تلمسان** سنة 539هـ / 1144م، ثم **وهران** بعد محاصرتها وإشعال النيران على باب حصنها وقتل من كان بها من المرابطين.

- ضم كافة مناطق المغرب الأقصى بما في ذلك مراكش وفاس وبقية المغرب مضيق جبل طارق وقد تمت سنة 542هـ.

- فتح بقية المغرب الأوسط وقد تمت بدخول الموحدين مدينة الجزائر سنة 548 هـ -1153م.

- سيطرة الموحدين على إفريقية بما في ذلك شرق إقليم طرابلس. وقاموا باستعادة المهدية وجزيرة جربة وبقية سواحل إفريقية من **النورمان**، وقد تمت سنة 555 هـ-1160م، وبذلك يكون الموحدون أول من وحد بلاد المغرب كله عدا برقة وما يليها شرقا إلى حدود مصر.

6-مرحلة القوة

بلغت الدولة أوجها في عهد **أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي** (1163 - 1184م) ثم **أبو يوسف يعقوب المنصور** (1184م -1199م) والذي تلقب بالمنصور وعمل على النهوض بالدولة الموحدية والأندلس علميا وثقافيا. وكان قائدا ماهرا وسياسيا قديرا استطاع عقد الصلح مع مملكة قشتالة. ولكن نقضهم للصلح اضطره لقتالهم في **معركة الأرك**، مع بناء العديد من المدن الجديدة وتشجيع الثقافة والحياة الفكرية (ابن رشد، ابن طفيل). وقعت بعد ذلك معركة **الأرك** عام 1195م والتي انتصر فيها الموحدون على الملوك النصرانيين. في عهد الناصر (1199م -1213م) تم القضاء على العديد من الثورات في إفريقية. وبعد موقعة **الأرك** عقدت هدنة بين ملك قشتالة ألفونسو الثامن والمسلمين.

-استطاع خليفته عبد المؤمن الكومي (1133م -1163م) أن يستحوذ على المغرب الأقصى والأوسط حيث دخل مراكش عام 1146م وقضى على المرابطين، ومن ثم توسع إلى كامل أفريقية (حتى تونس وليبيا عام 1160م) والأندلس (1146م -1154م).

– اتجه عبد المومن بن علي الكومي إلى الأندلس وعمل على تقويتها وصد هجمات القشتاليين عنها. لكنه توفي عام 1163م.

–تولى ابنه **يوسف بن عبد المؤمن** مكانه فاستكمل سياسة أبيه، ووطّد نفوذه في الأندلس، وبعث إليها بالجيوش لتقوية إماراتها. حيث أقام المشاريع في إشبيلية، مثل بناء القنطرة على نهر الوادي الكبير، وجامع إشبيلية الأعظم عام (567 هـ / 1172م)، ثم أتمّ ابنه المنصور مئذنته الكبيرة سنة 1188م، ولا تزال هذه المئذنة قائمة وتعرف باسم «**الخيرالدة**» ويبلغ ارتفاعها 96 مترًا. أصيب وفي إحدى غزواته في الأندلس سنة (579 هـ / 1183م) فرجع إلى مراكش مصابًا، وبها مات.

7–مرحلة الضعف والسقوط

–استغلال **الفونسو الثامن** الهدنة في تقوية بلاده ومحالفة أمراء النصارى. ثم أغار على بلاد **جيان وبياسة** وأجزاء من **مرسية**.

–إعلان **الفونسو الثامن** رفقة البابا الحرب الصليبية ضد الأندلس. وكان من نتاج ذلك أن اجتمع للإسبان جيش كبير التقى بجيش المسلمين عند **حصن العقاب**. وهناك تلقى الموحدون هزيمة قاسية على يد النصرانيين في معركة حصن العقاب سنة 1212م ولم تقم للمسلمين بالأندلس بعد هذه المعركة قائمة.

– بدأت الدولة تتهاوى بسرعة مع سقوط الأندلس في أيدي النصرانيين بعد عام 1228م، وسقوط إفريقية بأيدي الحفصيين، والمغرب الأوسط أيدي بني عبد الواد –الزيانيون–(1229م – 1236م).

–تراجع حكم الموحدين بين سنوات 1224م إلى 1236م في فرعين: أحدهما في المغرب الأقصى والثاني في الأندلس. ومنذ 1244م تعرضوا لحملات المرينيين، ثم فقدوا السيطرة على المغرب الأقصى وانتهى أمرهم سنة 1269م بعد أن قضى عليهم المرينيون نهائياً.

8–عوامل السقوط:

لقد حملت دولة الموحدين في طياتها عوامل الانهيار؛ والتي كانت كثيرة؛ نذكر منها:

–**الانحراف العقدي** الذي قاده مؤسس الدولة ابن تومرت ومحاربته منهج أهل السنة، وبالرغم من أن **المأمون بن إدريس** أحد خلفاء الموحدين قام بإصلاحات في هذا الجانب، إلاَّ أنَّ أشياخ الموحدين ظلُّوا يعتقدون في عصمة ابن تومرت وفي صدق أقواله، بخصوص تكفير دولة المرابطين، وقد بنى ابن

تومرت على هذه الفكرة جواز قتلهم، وهدم دولتهم، حيث أسرف الموحدون كثيرًا في إراقة دماء مَنْ خالفهم من المسلمين، بل في سفك دماء مَنْ يشكُّون في ولائه لهم ممن كانوا معهم؛ وذلك كما فعل مؤسس الدولة المهدي ابن تومرت قبل واقعة البستان أو البحيرة التي هُزم فيها الموحدون.

-**الثورات الداخلية**، حيث كانت الثورات الداخلية الكثيرة التي قامت داخل دولة الموحدين سببا في سقوطها، وكان أشهرها **ثورة بني غانية** وهم من بقايا المرابطين؛ والتي كانت في جزر البليار، وفي تونس. إضافة إلى **ثورات الأعراب المتتالية**؛ منهم قبائل **بني سليم وبني هلال** التي سكنت إفريقية والمغرب الأوسط وبعد ذلك المغرب الأقصى التي كانت أحيانًا تتحالف مع بني غانية ضد الموحدين وأحيانًا تخضع لدولة الموحدين. إلى جانب **ثورات الأندلس** أشهرها، **ثورة محمد بن مردنيش** الذي لم يتم القضاء عليه إلا بعد ربع قرن من تحالفه مع النصارى.

-**ضعف هِمَة المسلمين وقادتهم**، أدى إلى مصائب كبرى حلت على الموحدين كهزيمة **معركة العقاب**.

-**انفتاح دولة الموحدين على الدنيا** وجريان الأموال في أيديهم، ما أدى إلى الترف الفاحش ثم التصارع على الحكم والوقوع في الظلم وسفك الدماء.

-**دور الوزراء من أمثال أبي سعيد بن جامع** وزير الناصر لدين الله ومَنْ كان على شاكلته بعد ذلك، فلقد أدت **أسرة ابن جامع** التي تولَّى كثير منها الوزارة، أخطر دور في تحطيم دولة الموحدين، بمشاركة الأعراب البدو، وأشياخ الموحدين.

خاتمة:

نخلص في نهاية المحاضرة إلى النتائج الآتية:

- دولة الموحدين سلالة أمازيغية حكمت المغرب الإسلامي والأندلس سنة 1130.

- جاء لقب "الموحدين" لكون أتباع هذه الطريقة كانوا يدعون إلى توحيد الله، وكان **محمد بن تومرت** يدعو إلى تنقية العقيدة من الشوائب.

- أطلق "بن تومرت" عام 1118م الدعوة لمحاربة المرابطين واتخذ من قلعة **تنملل** على جبال الأطلس مقرًا له.

– استطاع خليفته عبد المؤمن أن يستحوذ على السلطة في المغرب حيث سقطت مراكش عام 1147م، ومن ثمّ على كامل إفريقيا "حتى تونس وليبيا عام 1160 م" والأندلس "1146-1154م"، وفي عهد الناصر "1199-1213م" تم القضاء على العديد من الثورات في إفريقيا.

– مرت دولة الموحدين في أولى مراحلها بالقوة، إذ حكم عبد المؤمن بن على أربعًا وثلاثين سنة تعد من أزهى عصور المغرب.

– أشهر ملوك دولة الموحدين (عبد المؤمن بن علي الكومي، أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور، محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف".

– مرت دولة الموحدين في عهد حكم **عبد الرحمن الناصر لدين الله** بمرحلة الرمق الأخير لها، إذ أخطأ الناصر لدين الله أخطاء فادحة أنهت وجود دولة الموحدين.

– تلقت دولة الموحدين هزيمة قاسية في **معركة حصن العقاب** في عام 1212م أنهت تواجدها في الأندلس.

-انقسمت دولة الموحدين إلى ثلاثة دويلات حكمت المغرب الإسلامي وهي: الدولة الحفصية والزيانية والمرينية.

المراجع:

— أبي بكر بن علي الصنهاجي. المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين

— محمد عابد الجابري. فكر ابن خلدون العصبية والدولة

— الذهبي. سير اعلام النبلاء

— ابن أبي زرع. روض القرطاس.

— حمد بن صالح السحيباني. الاتجاه الفكري لدعوة بن تومرت (دراسة تاريخية).